

إلى الدكتور طه حسين بك

للدكتور زكي مبارك

أيها الأستاذ الجليل :

تلطفت فأوصيتني بكتابات الحديث الذي دار بيني وبينك في حضرة « الصديق العظيم » الذي يحل وداده من قلبي وقلبك أعز مكان ، وأنا أستطيع النص على اسم ذلك « الصديق العظيم » بلا تهيب لمواقب الكتاب ، لأن للحديث الذي جرى بيني وبينك في حضرة صلة وثيقة بأصول المذاهب الأدبية التي يشتجر حولها الخلاف في كثير من الأحيان . فإن قلت إن هذا « الصديق العظيم » خلع على ذلك الحديث حلة من الدعابة التي تشهد بما يملك من عذوبة الروح ، وإنه قد يكره أن يشار إلى اسمه في مجال الدعابة والظرف ، فإني أجيب بأن ذلك « الصديق العظيم » أرحب سدرأ مما تظن ، وهو أكبر من أن يرى أن جلال المنصب يمنع من التندر الجليل

لا خوف من النص على اسم ذلك الصديق ، ولكني سأعمل بوصيتك ليصح لي القول بأنني لا أنمرد عليك في كل وقت ، وليصح لك للظن بأنني أقدر على مراعاة الظروف حين أشاء ثم ماذا ؟

ثم أستبيح لنفسى التحدث عن بعض ما شجر بيني وبينك . ويظهر أن المقادير لا تريد أن أسكت عنك أو تسكت عني ، وفي ذلك الخير كل الخير لو تعرف وأعرف . وهل ارتفع العقل إلا بفضل الخلاف ؟ وهل يتصور الناس وجوداً للحيوية للتشريعية لو لم يتر الخلاف بين الشافعية والحنفية ؟ وهل تأصلت مشكلات النحو والصرف إلا بفعل الجدل بين البصريين والكوفيين ؟ وهل تفوق العقل المصري في العصر الحديث إلا بسبب النزاع حول القديم والجديد ، والصراع حول المذاهب الاجتماعية والأحزاب السياسية ؟

إن الخلاف نعمة عظيمة جداً ، وبنا علينا إذا لم نختلف فكيف تريد أن أكون صديقاً ظريفاً لا تسمع منه غير الكلام المسؤول ؟

وهل قل الطرفاء من أصدقائك حتى تطالبني بما تعجز عنه سجييتي ؟

إن « بدواة الطبع » التي كثر الكلام في ذمها وتجريحها لم تكن من المثالب إلا في كلام الشموعية ، وهم قوم أرادوا النض من الشائيل المربية ، ولولا ذلك الهجوم الأليم لبقيت من المحامد ، فكيف تنكر على رجل مثل أن يظل بدوى الطبع في زمن توارت فيه المراحة وكثر فيه تنميق الأحاديث ؟

لا بد من خلاف بيني وبينك لتجد الأبحاث الأدبية والفلسفية وقوداً يحيا به اللب المقدس في حياة العقل والوجدان فإن ضاق صدرك بهذه الحقيقة واكتفيت بمحاوراة الرجل اللطيف الذي يقول إن الصحراء تشكو الظلم وأن البحر يشكو الزلزال وأن الخير في امتزاج البحر بالصحراء . إن كان ذلك ما يرضيك فشرّق في محاورته وغرب كيف شئت وكيف شاء

ولكن ما رأيك فيمن يصارحك بأن الحيوية لن تشيع في أبحاثك إلا إذا حاورت « الرجل الذي لا يخلو إلى قلبه إلا وفي رأسه عقرت » ؟

تلك كلمتك ، يا سيدي الدكتور ، وأنا عنها راض وبها مغتال ؟ فها هو المفريت الذي يحتل رأسي حين أخلو إلى قلبي ؟ أليكون هو الجن الذي سماه الفرنسيون Génie ؟ إن كان ذلك فأنت تشهد لي بالمبقرية ، والقول ما قال طه حسين وهل تكون المبقرية إلا من نصيب من يخاصم رجلاً مثلك في سبيل الحق ؟

وما هي المنفعة التي أرجوها من خصمتك وأنت رجل يضرب وينفع ؟

ما هي المنفعة التي أجنيتها من خصمتك وقد صاحبك عشر سنين كانت أطيب الأوقات في حياتي ؟ يظهر أنك لا تعلم أنك على جانب عظيم من الجاذبية وأن الرجل الماقل لا يترك مودتك وهو طائع فإني سبب الخصومة بيني وبينك ؟ إليك أقباساً من البيان :

منذ أكثر من سبعة أعوام أقيت محاضرة في الجامعة الأمريكية عن البحري سجلها جريدة كوكب الشرق ، وشاء

على أن أسجل هذه القضية في أحد هواش كتاب النثر الفني ، فكانت فرصة اغتنمها صديقك الأستاذ أحمد أمين ليقول في مقال كتبه في مجلة الرسالة : إن زكي مبارك يعوزه الذوق في بعض الأحيان !!

نم ماذا ؟

نم كانت لك يد مؤثرة في شؤون الدراسة الثانوية بحجة أنها تهديد للدراسة الجامعية ، وكان من أثر ذلك أن فرضت على طلبة السنة الخامسة بالمدارس الثانوية كتاباً في نقد للنثر لفدامة بن جعفر لا يفهمه المدرسون إلا بماء فضلاً عن التلاميذ

وأقول بصراحة إنى لم أفصح في حمل المفتشين على مقاومتك ، فبرزت لك بنفسى في مقال نشرته بمجلة الرسالة ، فهل استجبت لصوت الحق وأعفيت التلاميذ من كتاب تقوم تماريقه على متطق أرسططالس وهم يجهلون كل الجمل ؟

أنت عزيز علينا يا سيدى الدكتور ، لأنك رجل شهم ، ولكن ما رأيك في أغلاطك ؟ ومن يدلك عليها إذا سكت عنك ؟ هل تذكر كلمة «الصدى العظيم» منذ أيام حين قال لك وهو يتنم : كيف صيرتم زكى مبارك دكتوراً وهو رجل مشاغب ؟ أنت تذكر ذلك ولا ريب ، ولكنك تعرف أنى لم أنل ألقاب الجامعة المصرية بلا جهاد ، وأنت نفسك أسقطتني في امتحان اللسان مرتين ، واشتركت في امتحان الدكتوراه الذى أدبته أول مرة مع أنك لم تكن عضواً في لجنة الامتحان ، وكان لخصومتك الصورية تأثير في الدكتوراه التى ظفرت بها المرة الثالثة فلم أصل إليها إلا بعد جهاد سبع سنين

فما فضلك على إن لم يكن فضل المؤدّب الحصيف ؟

هل تذكر يا دكتور ما وقع في نوفمبر سنة ١٩١٩ ؟

هل تذكر ما وقع يوم غاب سكرتيرك وكنت وحدى الطالب الذى يفهم العبارة الفرنسية لكتاب نظام الآتينيين لأرسططاليس ؟ وهل تذكر أنك أعلنت سرورك بأن يكون في طلبة الجامعة المصرية من يفهم أمرار اللغة الفرنسية ؟

فن يملكك أن الشاب الذى أدخل السرور على قلبك في سنة

١٩١٩ هو الكهل الذى تنكره في سنة ١٩٤٠ ؟

(المفريت الذى يحتل رأسى حين أخلو إلى قلبى) أن أنشر في جريدة التبلاغ مقالاً عنوانه .

« الدكتور طه حسين يغلط خمس مرات فقط في محاضرة واحدة »

نم لقيتني بعد ذلك في الجامعة الأمريكية وجادلتنى في تلك الأغلاط فأعلنت أنى أخطأت ، وكان ذلك لأن الجمهور أحاط بنا من كل جانب ليرى كيف أدفع هجومك ، وما كان يجوز لى أن أستع غير الذى صنعت ، لأن أدبى لا يسمح لى بمصاوتك أمام الناس ، ولأن وجهك يشفع لك ، فهو وجه لا يلفاه الرجل الحر بغير الإغراز والتبجيل

فما الذى صنعت أنت في تصحيح الأغلاط التى أخذتها عليك ؟ مضيت فنشرت محاضرتك عن البحثى في كتابك : « حديث النثر والشعر » ، وأبقيت تلك الأغلاط ، أستغفر الله ، بل (تفضلت) فشكت للكلمات المفلوطة لتقول : إنك لا تمبأ بأى نقد يوجه إليك !!

فما الذى كان يمنع من تدارك تلك الأغلاط ؟ وما الذى كان يمنع من شرح رأيك في الهامش إن كنت تؤمن بأنى لم أكن على حق ؟ ؟

نم ماذا ؟

نم حدث في صيف سنة ١٩٢٩ أن أنكرت على أن أنخذ شواهد لتطور « النثر الفنى » من رسائل عبد الحميد بن يحيى . وقتل : إن عبد الحميد بن يحيى شخصية خرافية كشخصية امرئ القيس ! وكان ذلك بمسمع من شايين واعيين هما : محمد مندور وعلى حافظ . وكانت حجبتك أن عبد الحميد بن يحيى لم يرد اسمه في مؤلفات الجاحظ ، فرجعت إليك بعد أيام وأخبرت أن الجاحظ تكلم عن عبد الحميد بن يحيى مرات كثيرة ، وأن مؤلفات الجاحظ تعرف رجلين : أحدهما عبد الحميد الأكبر والثانى عبد الحميد الأصغر ، فلم تجب بحرف واحد . ثم أقيمت وأنا في باريس محاضرة قلت فيها : إن عبد الحميد بن يحيى أخذ أشياء من أدب اليونان ؛ وفانك أن تنص على اسم الرجل الذى أقنعتك بأنه لم يكن شخصية خرافية .

وقد حملنى (المفريت الذى يحتل رأسى حين أخلو إلى قلبى)

في سدرى أشياء وشؤون وشجون، فتى أنفض هموى بين
يديك وقد رأيت للشعب يشتمل في شمرىك الجليل ؟
متى نلتقى أيها الأستاذ الجليل لتصفية الحساب ؟
إن « العفريت الذى يحتل رأسى حين أخلو إلى قلى »
لا يحضر حين أنفك ، لأنى لا أرى وجهك إلا تذكرت أنى
أحببتك إلى حد المشق
فتى نلتقى وحولك أرساد يؤذهم أن أصل إلى قلبك الرقيق ؟
وهل أجهل أو تجهل أن فى الدنيا ناساً عاشوا بإنساد ما بينى
وبينك ؟ الله وحده يشهد أنى لم أخصمك إلا فى سبيل الحق
والله وحده يشهد أنى لم أقل فيك غير ما استبجت نشره
فى الجرائد والمجلات . ومن ذلك نعرف أن « العفريت الذى يحتل
رأسى حين أخلو إلى قلى » لم يكن عفريتاً لثياً ، وإنما هو عفريت
تلميذك وزميلك وصديقك :
نركى مبارك

أنا أهرف ما تذكره منى . أنت تذكره منى الكبرياء ، وكيف
أتواضع وقد أعانى الله على بناء نفسى ؟ كيف وقد أقت الدليل
على أن الشباب المصرى خليق بمظمة الاعتماد على النفس ؟ وهل
رأيت رجلاً قبل أنتم دراسته فى أوروبا وهو مثقل بشكاليه الأهل
والأبناء ؟ هل رأيت رجلاً قبل يهتف بأوطار الشباب وهو
مُتخَنٌ بجراح الزمان بعد الأربعين ؟ هل رأيت رجلاً قبل يؤلف
الكتب الجيدة فى البواخر والقطارات والسيارات ؟
ومن يصدق أنى أنفق فى سبيل الورق والداد أضعاف
ما ينفق بعض الناس فى سبيل الطعام والشراب ؟
إن الدكتور طه من ذخائرنا الأدبية ، ويجب أن يعيش ،
ونحن سناده فى الخطأ والصواب رعاية لمركزه فى الجامعة وفى
وزارة المعارف ، وهو خليق بمركزه فى الجامعة وفى وزارة المعارف
أيها الأستاذ الجليل :



فى الشاى الجميل

صحة وقوة ونشاط
المشروب المفضل فى فصل الشتاء



الشاى الجميل دار الهندوسية ومهارة وسومطرا